

مراجعات – تقديم كتب

'إطلاقات على تراث الأدب القبطي'، ترجمها عن اللغة القبطية وقدم لها/ د. صموئيل القس قرمان معوض،
قسم القبطيات - جامعة مونستر (ألمانيا)، إصدار/ مدرسة الإسكندرية، سبتمبر 2013،
التقديم الدولي 2-0859-90-977-978، 517 صفحة من القطع المتوسط، 45 جنيهاً.

إبراهيم ساويرس¹

صموئيل القس قرمان معوض هو باحث مصري لم يزل في سن الشباب، تخرج في كلية الآثار، جامعة القاهرة، ثم سافر إلى ألمانيا الاتحادية بحثاً عن فرصة أفضل لدراسة علوم القبطيات. أنفق من عمره ما يقرب من عقدين من الزمان في هذه الدراسة. جاء كتابه هذا مسبقاً بمقدمة بحثية أكاديمية بقلم الأنبا إبيفانيوس، أحد أساقفة الكنيسة القبطية وعلمائها المعاصرين.¹ المقدمة التي احتلت الصفحات (5-9) خلت من المقدمات المعتادة في الكتب التي تصدرها المؤسسات الدينية التابعة للكنيسة القبطية، والتي تبدأ بشكر المؤلف، وتنتهي بطلب البركات له من السماء، لكنها -على خلاف السائد- جاءت مقدمة أكاديمية معتبرة، وقدمت تقييم سريع لعلم القبطيات، ونبذة عن تاريخه، وعلاقته بعلم المصريات.

يبدأ الكتاب بمقدمة مطولة تحتل الصفحات (11-92). المقدمة وزعت إلى عدة عناصر، كل منها مكتوب بدقة لا تتقصها حلاوة اللغة العربية، واستقامة قواعدها، لكن هذه العناصر يشوبها عدم الترابط، فالرابط الوحيد فيما بينها هو الهوية الشخصي للمؤلف. يبدأ الكاتب مقدمته بتعريف الأدب القبطي، تعريفاً ينطبق على مجموعته المختارة من النصوص المتضمنة في الكتاب. في الصفحات الأولى للمقدمة، يحاول المؤلف أن يضع تعريفاً لماهية الأدب القبطي، مناقشته لهذا التعريف جاءت مقتضبة لا تتناسب مع كتاب معنون بإطلاقات على هذا النوع من الأدب. كما أنه يأخذ في اعتباره كتابات تيتو أورلاندي، ويغض بصره عن كتابات متعددة ناقشت ما هو معنى وفحوى الأدب القبطي.² يفرد المؤلف مبحث مستقل عن تاريخ التكلم باللغة القبطية، الصفحات (15-26)، يتفرد هذا المبحث عن نظائره المكتوبة سابقاً في العربية³ بأنه يستمد مادته من نصوص أصلية مباشرة، سواء كانت نصوصاً أدبية، أو وثائق، ويعكس المعرفة المتبحرة للمؤلف بالأدب القبطي في مختلف عصوره، كما أن هذا المبحث يمثل إضافة جيدة لدراسة موقع اللغة القبطية الحقيقي بين اللغتين اليونانية والعربية من حيث تاريخية استخدامهم. على الصفحات (27-49) يناقش المؤلف في تركيز شديد مراحل تطور الأدب القبطي وأهم موضوعاته، ويعرج على كل نوعيات النصوص، وأغراضها، من الكتاب المقدس لكتابات الآباء، المترجم منها والمكتوب مباشرة في القبطية، لكنه يسقط في فخ إهمال النصوص المنحولة، والنصوص الغنوسية والمانوية، التي جاء ذكرهم جميعاً في عجلة لم تتجاوز ثلاثة فقرات في صفحة ونصف على الرغم مما هو معروف من انتشار هذه النصوص في الأدب القبطي واعتبارها علامة مميزة له، وربما كان السبب

¹ كلية العلوم الإنسانية - جامعة ليدن (هولندا)

في ذلك يعود إلى كون الكتاب قد كتب أساساً لخدمة الغرض الروحي الديني، وأن من طبعه ونشره هي مؤسسة كنسية بالأساس، فلا حاجة للدخول إلى مغاير نصوص غير روحية، بل ربما غير مسيحية من الأصل. كما أن تجنب الباحث للخوض في مثل هذه النصوص ينعكس تماماً في اختياره للنصوص التي ترجمها، والتي خلت بالكليّة من أي نص ينتمي لهذه النوعيات. على أية حال لو كان المؤلف قد اهتم أكثر بإيراد عدد أكبر من المراجع التي نشرت النصوص القبطية الأصلية في هوامش صفحات هذا المبحث، لكان ذلك قد أغنى كتابه جداً.

ينتقل الكاتب لمعالجة المبحث الذي يتخذ أكثر من نصف مقدمة الكتاب المطولة، ألا وهو الكتابات التاريخية القبطية، والذي يحتل الصفحات (51-92)، صحيح أن الكتابات التاريخية بحكم طبيعتها تصنف ضمن الكتابات الأدبية، لكن أن يفرد لها الكاتب هذه المساحة فهي مبالغة منه، ربما يعود تفسيرها إلى خبرته السابقة في مجال الكتابات التاريخية القبطية، فأراد الرجل ألا يفوت الفرصة دون الإشارة إليها.⁴ يختتم المؤلف مبحثه هذا بجزئية عن القديس مارمرقس والهوية القبطية، الصفحات (83-90)، يناقش فيها استخدام جسد القديس في ليتورجيات الكنيسة القبطية، وفي إثبات التسلسل التاريخي الشرعي لبطارقة القبط منذ زمن القديس مرقس، المعتبر البطريرك الأول، وهي جزئية اعتمدت على معرفة المؤلف العميقة بالمصادر التاريخية القبطية، ولم يسبق لأحد مناقشتها في نشر بالعربية أو غيرها. يُنهي الكاتب مقدمته المطولة بطريقة غير معتادة، ففي الصفحتين الأخيرتين منها (91-92) يكيل المؤلف المديح لكتابين في مجال الأدب القبطي، قد سبقا كتابه في الظهور!

لا يُقسم الباحث كتابه إلى فصول أو أبواب، بل ولا يهتم بترقيم النصوص التي ترجمها من القبطية إلى العربية، بل تجدها جميعاً في الكتاب في تتالي تاريخي بحسب المؤلف. تبدأ هذه النصوص بعظة للقديس باخوميوس، الصفحات (93-124). في مقدمته للترجمة العربية للنص، اهتم المؤلف بتاريخ انتقال العظة من القبطية إلى العربية، وقارن بين النص الأصلي والترجمة العربية القديمة لها. يلاحظ هنا أن الباحث يتبع اختصارات تيتو أورلاندي عند ذكر المخطوطات وأماكن حفظها وأماكن الكشف عنها، وهي اختصارات ليست منتشرة أو حتى معروفة بالقدر الكافي عند القارئ العربي.⁵ جدير بالذكر هنا أن أغلب مجموعة النصوص المترجمة في الكتاب قد ظهرت سابقاً في صورة مقالات منفردة مرتين، الأولى في مجلة 'مدرسة الإسكندرية' الصادرة عن كنيسة مارجرس باسبورتج بالإسكندرية، والتي يقوم المؤلف نفسه مع آخرين على تحريرها، والثانية في مجلة 'الطريق'، الصادرة عن إيبارشية هولندا وبلجيكا القبطية الأرثوذكسية بأمستردام، ويترأس تحريرها الأنبا أرساني، أسقف هولندا وبلجيكا. وقد أشار معوض لذلك عند شكره لمن ساعدوه في إصدار الكتاب، الصفحة (3).

النص الثاني بالكتاب هو رسالة إلى العذارى بقلم القديس أثناسيوس الرسولي، الصفحات (125-157)، وهو نص مترجم عن أصل يوناني مفقود. يلي ذلك سيرة القديس آفو المتوحد الذي عاش ما بين نهايات

القرن الرابع وبدايات القرن الخامس، الصفحات (159-175). في مقدمته السابقة للترجمة يقول المؤلف نصاً: 'أسلوب هذا النص الأدبي يدل على أنه لم يحدث به تطوير أو تغيير يذكر كما هو معهود في مثل هذه النصوص، عندما يضاف إليها في عصور لاحقة العديد من المبالغات والأخبار غير المؤكدة' صفحة (160)، والحقيقة أنه لا يُعرف كيف تأكد المؤلف من ذلك؟ على الرغم من أن السيرة محفوظة في مخطوط وحيد، فهل خلو النص -أي نص- من المبالغات الإعجازية يشير لقدمه أو أصالته؟

يلي ذلك عظة لعميد الأدب القبطي أنبا شنودة رئيس المتوحدين بعنوان قدوس هو الله، الصفحات (177-191). ثم عظة للقدّيس مكاريوس أسقف إتكو عن عيد رئيس الملائكة ميخائيل، الصفحات (193-210). ثم مديح للقدّيس مكاريوس أسقف إتكو، الصفحات (211-260).⁶ ينتقل المؤلف بعده إلى سيرة البابا ديسقورس الإسكندري، وهي في الحقيقة نص عربي وليس مترجماً عن القبطية، الصفحات (261-316). يلي ذلك ترجمة المؤلف لسيرة القديسين لونجينوس ولوكيوس، الصفحات (317-340)، وفي مقدمته لهذه الترجمة يعرج المؤلف على دير الايناتون الشهير الذي سكنه القديسان صاحب السيرة، ونجح في فقرات قصيرة مركزة أن يقدم صورة مكتملة عن التجمع الرهباني المزدهر هناك في ذلك الزمان. في مقدمة المؤلف للنص التالي، وهو مديح للقدّيس أنبا أنطونيوس بقلم يوحنا أسقف الأشمونين، الصفحات (341-370)، يعرض لقراءه تاريخاً مختصراً للأسلوب الأدبي المعروف باسم المديح والذي نشأ بالأساس في الآداب اليونانية القديمة، ثم دخل الأدب القبطي واصطبغ بصبغة معينة جعلت منه مصدراً للتاريخ في بعض الأحيان.

ينتقل المؤلف بعدها لمديح للقدّيس مارمرقس بقلم نفس الكاتب؛ يوحنا أسقف الأشمونين، الصفحات (371-378)، ثم سيرة البابا اسحق، بطريرك الكنيسة القبطية الحادي والأربعين، لمينا أسقف بشادي، الصفحات (379-412). لعله أهم النصوص المتضمنة في الكتاب، فهو من أندر النصوص القبطية التي تؤرخ لسيرة بطريرك تفصيلياً، ويدونها أحد شهود العيان. تتضمن السيرة لمحات مهمة عن علاقة بطريرك الكنيسة بالحكام المسلمين، وبالكنيسة الخلقيدونية. يلي هذه السيرة نص معنون استشهاد القديس يوحنا الزيتوني، الصفحات (413-435)، وكلا النصين الأخيرين مترجم عن البحرية. ثم يقدم المؤلف ترجمته الرائعة للشذرات الصعيدية المتاحة من كتاب تاريخ الكنيسة بالصعيدية، الصفحات (437-472)، ويسبق هذه الترجمة بدراسة دقيقة لمحتوى النص، ومؤلفيه. في هذه الترجمة، أعطى المؤلف عناوين جانبية للنص، بينما كان في كل النصوص السابقة يكتفي بترقيم الفقرات دون عناوين.

ينتهي الكتاب بدراسة عن كتاب تاريخ البطاركة باللغة العربية، الصفحات (437-500)، هذه المرة ليست ترجمة، لكنها دراسة، وإن كان النص المدروس مأخوذ في أغلبه من نصوص يونانية وقبطية أقدم. يلاحظ هنا أن المؤلف قد ناقش في دراسته هذه نقطتين باستفاضة، الأولى هي تجميع كتاب تاريخ البطاركة من عدة مصادر بواسطة عدد من المؤلفين والمحررين، وهو الأمر الذي سبقه إليه الأب وديع عوض

الفرنسيكاني، ونشر نتائج دراسته في مقال ضخم وزع في سبعة أعداد متتالية من مجلة صديق الكاهن في العامين 2005 - 2006. ذكر الباحث أنه قد عرف بهذا المقال بعد انتهائه من بحثه، صفحة (473 هامش 2)، أي أنه وصل لذات النتائج منفردًا، لكننا نشير على القارئ بمراجعة مقال الأب وديع الغني بتفاصيل مهمة عن اقتباس مؤلفي تاريخ البطاركة لنصوص يونانية وقبطية أقدم بخلاف نصي تاريخ الكنيسة الصعيدي. النقطة الثانية التي ناقشها المؤلف باستفاضة هي أن بعض أجزاء كتاب تاريخ البطاركة العربي قد جاء أصلًا من النص اليوناني لتاريخ الكنيسة الشهير ليوسابيوس عبر ترجمة صعيدية حُفظت لنا في عدة شذرات موجودة في باريس، وهذا الأمر قد سبقه إليه فريق عمل موقع المخطوطات الأدبية القبطية بقيادة تيتو اورلاندي، ونشروا بعض المقارنات بين هذه النصوص الثلاثة على موقعهم في العام 1999.⁷ وقد أسموه نص تاريخ الكنيسة وأعطوه رقم 0020 في سلسلتهم للكتابات الأدبية القبطية. يلاحظ بصورة عامة في المقدمات التي سبقت ترجمات المؤلف أنه لا يتبع نمط محدد في كتابته، أحيانًا يعلق على أسلوب الكاتب، وأحيانًا يهتم بالنمط الأدبي للنص. في مرات يذكر محتويات النص في ملخص قبل الترجمة، ومرات أخرى يتجاوز عنها. في بعض مقدماته جاء معوض مسهبًا دون إطناب، وبعضها جاء مقتضبًا في تقصير.

جدير بالذكر أن المراجعة المدققة للنصوص المترجمة من الصعيدية والبحيرية في هذا الكتاب المهم تعكس دقة الكاتب وتبحره في معرفة اللهجتين، فقد خالف معوض في ترجماته إلى العربية، في غير موضع، الترجمات السابقة عليه إلى اللغات الأوربية الحديثة. وكانت مخالفاته لهم مبررة لغويًا. كما تجنب معوض الخوض في جدالات لغوية كانت ستحول الكتاب إلى الصورة الأكاديمية الجافة وستصرف نسبة غير قليلة من جمهور القراء عنه. برغم أن المؤلف قد أشار إلى أن أحدهم قد راجع له اللغة العربية، إلا أنه لا يفوتنا مديح لغة المؤلف التي لا يخفى على القارئ طلاوتها وبساطتها مع دقة تعبيراته وحسن اختيارات مصطلحاته التقنية (راجع مثلًا مصطلح 'حرد المتن' كترجمة لكلمة كولوفون، صفحة 28)، كما أن الكتاب لم يخل من أغلاط إملائية نادرة (راجع مثلًا حرد بدلًا من حرف، صفحة 262). أما هوامش المؤلف على ترجماته فقد جاءت دقيقة بغير تكلف، أكثرها يحوي الاقتباسات الكتابية في النصوص، وبعضها يحوي مراجع للاستزادة أو ملاحظات بسيطة على لغة النص، بالإضافة إلى ملاحظات المؤلف التاريخية والليتورجية التي لا تكاد صفحة من الكتاب تخلو منها، كما أن بعض هوامش الترجمات تعكس ملاحظات الباحث المدققة عن نقاط النص الذي يترجمه مع نصوص أخرى من ذات المجموعة التي يضمها كتابه أو من خارجه. بقي أن يشار أنه من الناحية المظهرية قد اختلفت طريقة تدوين المراجع في مقدمة الكتاب عنها في بقية متته، كما أن قائمة المراجع الملحقة بالكتاب قد خلت من بعض الاختصارات الواردة في متته. أخيرًا فقد نجح معوض في أن يضع بين دفتي كتاب واحد نماذج عدة من الأدب القبطي، متنوعة من حيث الأسلوب والزمان والموضوع. وقد نقل في صفحات كتابه عصور مختلفة من التأليف القبطي.

الحواشي:

- ¹ للأندبا إبيفانيوس إنتاج أكاديمي عالي المستوى، منها على سبيل المثال: خولاجي الدير الأبيض، مدرسة الاسكندرية، 2014؛ القداس الغريغوري، النص اليوناني مع الترجمة العربية، دير القديس أنبا مقار، برية شيهيت، 2013؛ وغيرها.
- ² على سبيل المثال
- A. Jacoby, 'Studien zur Koptischen Litteratur', *RT* 24 (1902) 36-44, 194-197, 25 (1903) 37-49; W. C. Till, 'Coptic and its Value', *BJRL* 40 (1957) 229-258; P. Bellet, 'Coptic Language and Literature', *New Catholic Encyclopedia* IV (1967) 310-312.
- ³ شنودة ماهر اسحق (القس)، الأدب القبطي: اللهجات القبطية وآثارها الأدبية، القاهرة 1998؛ شنودة ماهر اسحق (القس)، ويوحنا نسيم يوسف، تراث الأدب القبطي: تاريخ اللغة القبطية ولهجاتها ومصادر الأدب القبطي ومبادئه، القاهرة، 2003.
- ⁴ للمؤلف عدد من المنشورات المهمة عن الكتابات التاريخية القبطية، نذكر منها:
- S. Moawad, 'Zur Originalität der Yusab von Fuwah zugeschriebenen Patriarchengeschichte', *Le Muséon* 119 (2006) 255-270; 'Al-Makīn Jirjis ibn al-'Amīd (the elder)', in D. Thomas et al (eds.), *Christian-Muslim Relations: Bibliographical History*, Vol. 4 (1200-1350), Leiden (2012) 566-571; 'Coptic Historiography', in G. Gabra (ed.), *Coptic Civilization*, Cairo (2014) 11-18.
- ⁵ هذه الاختصاصات متاحة على الموقع الإلكتروني: <http://www.cmcl.it/>
- ⁶ مكاريوس أسقف إتكو، موضوع رسالة المؤلف للدكتوراة، والتي نشرت في:
- S. Moawad, *Untersuchungen zum Panegyrikos auf Makarios von Tkoou und zu seiner Überlieferung*, Sprachen und Kulturen des Christlichen Orients 18, Wiesbaden (2010).
- ⁷ <http://www.cmcl.it/~cmcl/testi/hisec/hisec.html>